أدب الأطفال المتفوقين

قراءة فى السلسلة الذهبية لعز الدين جلاوجى

د. رشيدة كلاع

أستاذ محاضر جامعة الإخوة منتورى

قسنطينة بالجزائر

أخذت العناية بالكتابة للطفل تزداد يومًا بعد يوم، نظرًا لتحديات العصر، وما يفرضه من مغرياتٍ مختلفة. ساعد التطور التكنولوجى فى اتساع نطاق استعمالها؛ إذ "أصبح أدب الأطفال أهم الأدوات العامة والأساسية فى تنشئة الطفولة، التى تُعد أهم الدعائم والركائز لمستقبل الطفل العربى، والتى يقوم عليها مستقبل المجتمع العربى وشخصيته التى نريد لها أن تكون قوية ومؤثرة"، فإدراكًا لهذه الأهمية عُدّ هذا الأدب وسيلة تعليمية، تسهم فى التنشئة السليمة للطفل، وتوجيه سلوكه الحاضر والمستقبلى، فهو شبيه بعملية التدريس التى "تنمّى عند التلاميذ ذكاءهم، وتكوّن أخلاقهم، وتهتم بسلوكهم، وترقّى تذوّقهم للجمال، وتدربهم على حسن النظافة والنظام، وتكسبهم المهارة فى العمل وتعوّدهم العادات الحميدة، وتغرس فيهم الثقة بالنفس، وتصيّرهم فى حاضرهم ومستقبلهم أناسًا اجتماعيين"، إضافة لذلك فإنّ الأدب يفتح أمام الطفل آفاقًا معرفية جديدة، تجعله يلج عوالم مختلفة لم يكن يعرفها.

١ـ مفهوم أدب الأطفال:

تعددت تعريفات هذا الأدب منها أنّه: "تشكيل لغوى فنى ينتمى لنوعٍ من أنواع الأدب، سواء أكان قصة أم شعرًا مسرحيًا أم شعرًا غنائيًا، يقدّمه كاتب تقديمًا جيِّدًا فى إطار متصلٍ بطبيعة الأدب ووظيفته اتصالاً وثيقًا، ويتفق وعالم الطفولة اتفاقًا عميقًا". يتوسّل هذا الأدب على اختلاف أنواعه لغة أدبية راقية، تناسب عمر الطفل، حاملاً لرسالةٍ تربوية فى شكلٍ جمالى مناسب.

وبتعبير آخر: "هو كل ما يُقدّم للطفل من مادة أدبية وعلمية، بصورة مكتوبة أو منطوقة أو مرئية تتوفر فيها معايير الأدب الجيّد، وتراعى خصائص نمو الأطفال وحاجاتهم، وتتفق مع ميولهم واستعداداتهم، وتسهم فى بناء الأطر المعرفية الثقافية، والعاطفية والقيمية، والسلوكية المهارية، وصولاً إلى بناء شخصية سوية ومتزنة، تتأثر بالمجتمع الذى تعيش فيه، وتؤثر فيه تأثيرًا إيجابيًا". كثيرة هى تلك القيم الإيجابية التى يرمى إليها الأديب من خلال كتابته للطفل؛ فهو يحقق له من خلال تلك النصوص الإبداعية صورة حيّة لما يأمله ويتمناه فى الواقع، ويجعله يكتشف آفاقًا منطلقها هويته المميزة والمختلفة.

٢ـ أدب الطفل فى الجزائر:

إذا كان الاهتمام بالأدب بمختلف أجناسه قديم قِدَم الإنسان، فإنّ الحديث عن وجود أدبٍ للأطفال مواكب للحركة الإبداعية منذ القِدَم أمرٌ مبالغ فيه، إلا من تلك الشذرات التى جاءت مبثوثة هنا وهناك، وإن لم يكن المقصود بها الطفل بالتحديد. "ومع ظروف الحياة الحاضرة بمعطياتها المستجدة والمعقدة، ومع سهولة التواصل الثقافى والفكرى العالمى، تنامت العناية بأدب الأطفال وتزايدت، فصار الاهتمام به ضربًا من ضروب وقاية الطفل من سلبيات الحياة المعقدة، وصرفه عن شرور المستجدات، إضافة إلى تحصينه بالمثل العليا والعقيدة السليمة". إنّ إدراك أهمية الطفل بوصفه مستقبل الأمة الذى يتوقف عليه ازدهارها، جعل العناية بأدب هذه الفئة يصير من أولويات الاهتمامات الأدبية.

تعددت الدراسات والنصوص الأدبية الموجَّهة إلى الطفل؛ لتعكس الإقبال والحظوة التى صار يلقاها أدب هذه الشريحة من طرف الأدباء؛ إذ "واكبت الأمة العربية هذا الاهتمام بأدب الأطفال فى جميع الأقطار العربية، وذلك بنشر أدب وثقافة الطفل على نطاقٍ أوسع، وتدريس أدب الأطفال فى الجامعات والكليات التربوية المختلفة، وعقد الندوات والمؤتمرات لزيادة حركة النشر والتقويم فى مجال أدب الأطفال"، لذلك حرص الأدباء على إكساب الطفل معارف متنوعة؛ تعميقًا لتفكيره، وزيادة لثقته بنفسه وبإمكاناته.

إنّ ما يقدمه أدب الأطفال من قيّمٍ متعددة، يخلق جيلاً واعيًا يعرف ما يريد، لذلك "يجب أن يعطى الطفل فرصة كى يفهم نفسه بشكلٍ أفضل، وأن يساعده على وضع قليلٍ من التناسق فى فوضى مشاعره، إنّه بحاجة إلى تربية تعمل لكى تريّه بطريقةٍ ضمنية فائدة السلوك المنسجم مع الواقع ليس بواسطة أحكام مجردة، بل بعرض المظاهر الملموسة للخير والشر، بحيث يأخذان كل أبعادهما ومعانيهما بالنسبة إليه"، فالحاجة إلى ربط الطفل بأمته، وتاريخه، وماضيه أمرٌ جوهرى يزيد فى تعميق تصالح الطفل مع نفسه ومجتمعه، وكذا مع انتمائه، خاصة وأنه يمثل نخبة هذه الشريحة.

بالنظر إلى الجزائر التى عرفت إبّان الاستعمار محاولات عزل عن باقى الدول العربية، وعن مواكبة حركة الإبداع، فإنّ ذلك لم يمنع من وجود عددٍ من النصوص – وإن كانت قليلة - جسدتها أناشيد ومسرحيات...، فبرزت جملة من الأسماء الأدبية، منها على سبيل الذكر: محمد بن العابد الجيلالى السماتى، محمد الهادى السنوسى، محمد الشبايكى، محمد الصالح رمضان.

ليظهر بعد الاستقلال جيلٌ من الكتّاب، منهم: محمد الأخضر السائحى بمجموعته (أناشيد النصر) وديوان الأطفال، محمد ناصر: (البراعم الندية)، مصطفى الغمارى: (الفرجة الخضراء). كما اهتمت عدة مجلات بهذا الأدب، منها: مجلة ابتسم، مجلة طارق، مجلة شبل، مجلة جريدتى...، يضاف إليها سلسلة الأدب والكنوز، كتاب الأخلاق الفاضلة، الكيس العجيب، الثعلب والأسد...، ومن الكُتَّاب الذين برزوا فى قصص الأطفال: جلالى خلاص: (الديك المغرور)، الطاهر وطار: (بحباح المرتاح)، موسى أحمد نويرات: (بقرة اليتامى، لقرع بوكريشة)، محمد زيتلى.. يضاف إلى ذلك عقد جملة من المهرجانات لمسرح الطفل.

٣- أدب القصة:

تعددت أشكال الإبداع واختلفت ألوانه، ومعه تباينت الخصائص المقومة لكل لون أدبى. لكن رغم ذلك تظل العملية الإبداعية تنم عن "فعل أو نشاط نفسى أو اجتماعى كلى يقوم به الإنسان المبدع، ويترتب عليه ظهور منتج إبداعى جديد، يتميّز بالجدة والأصالة والمناسبة. وهذه العملية هى مزيج من النشاطات المعرفية والمزاجية، والدافعية والأدائية والاجتماعية التى يقوم بها المبدع وهى سبيله للوصول إلى هدفه". يقدّم الأديب للقارئ من خلال النصوص الإبداعية أشكالاً معرفية تعبّر عن تصوره لقضايا منطلقها الواقع، بأسلوبٍ أدبى ملىء بالتشويق.

القصة واحدة من الألوان الأدبية التى لاقت إقبالاً كبيرًا منذ القديم، فكانت مروية أولاً، لتكتب بعد ذلك وتصبح لونًا أدبيًا له خصائصه المميزة. وبالنظر إلى الطفل لا نجده يختلف عن الكبار فى إقباله على القصص، بل لعلنا نجده أكثر شغفًا بها.

القصة "لون من ألوان التعبير مقدّم لدى الأطفال، ومحبب لديهم، يحتل عندهم المقام الأوّل، فكلهم يميل إليها، ويتشوّق لسماعها وقراءتها لما فيها من عوامل التشويق والإثارة. لذا كانت ذات أثرٍ واضحٍ فى تنشئة الأطفال وتربيتهم"، فالقصة الجيّدة تكون ذات أثرٍ بالغٍ فى الطفل وتكوينه، بما تزّوده به من حقائق مختلفة، وما تزرعه فى نفسه من مبادئ وقيم.

كما أنّها "تزود الطفل بمعلومات ومعارف هائلة، وتنمى ثروته اللغوية، وتزيد من مقدرته على التعبير إذا طلب إليه إعادة سرد القصة أو أجزاء منها. فهى بكل ما سبق عاملٌ مهمٌ فى بناء شخصية الطفل الأدبية والنفسية والاجتماعية"، فهى تنمّى ثقة الطفل بذاته وبقدراته، وتدفعه إلى التفكير بشكلٍ جديدٍ ومختلف، خاصة فى ظل التطور التكنولوجى الذى يعيشه عصرنا.

وجب على الأديب الذى يكتب للطفل أن يدرك أن هذه القصص ليست للمتعة والتسلية فحسب، إنّما ينبغى أن تكون ذات أبعاد نفسية عميقة؛ ليدرك النص غايته من الكتابة لهذه الشريحة من القراء. من الحتمى "أن تكون قادرة على تحريض وتغذية الوسائل الداخلية الضرورية لمجابهة مشاكل الطفل الصعبة، وليس فقط تسليته وإعطائه بعض المعلومات. وكذلك إكساب الطفل بعض الآليات، ومنها اللغة والقراءة، إضافة إلى شىء من الأهمية لحياته". الأبعاد المختلفة التى تتضمنها القصة، تجعلها محمّلة بالقيّم، فتسلّح الطفل بأدواتٍ تمكنه من مجابهة صعاب الحياة، فى ظل التطور التكنولوجى الهائل، وتعده لحمل لواء صناعة بلده ودعم تطوره.

٤ـ علاقة القصة بالطفل ذى الاحتياجات العالمية الخاصة:

الطفل المتفوّق واحد من شريحة الأطفال التى هى بحاجة إلى عناية خاصة، سواء من طرف أجهزة الدولة وهيئاتها، أو من طرف الأدباء من خلال كتاباتهم؛ لما يمتلكه من استعداداتٍ ومؤهلاتٍ تجعله يرقى ويختلف عن أترابه، فـ " الطفل الموهوب والمتفوق هو ذلك الطفل الذى يتوافر لديه الاستعداد ليصبح منتِجًا للأفكار البشرية التى من شأنها تدعيم الحياة البشرية أخلاقيًّا وعقليًّا وعاطفيًّا واجتماعيًّا"، فالطفل الذى يتمتع بهذا النوع من المؤهلات بحاجة إلى رعاية واهتمامٍ مختلف، من طرف الأسرة التى من واجبها أن توفّر له قدرًا من الرعاية والاهتمام بوصفه من ذوى الاحتياجات الخاصة. لذا فإن من الأولويات "تربية الأفراد الذين ينتمون إلى فئاتٍ تختلف عن المستوى العادى سواء كان هذا الاختلاف فى الخصائص الجسمية أو العقلية، ومن أمثلة هذه الفئات: الصم والمكفوفين والمتفوقين عقليًّا وكذا ضعاف العقول"، وأيضا من طرف مجتمعه؛ حتى لا تنحسر هذه القدرات وتتراجع. يحتاج الطفل "دراسيًّا من أسرته على وجه الخصوص إلى توفير الإمكانات المناسبة وإلى تهيئة الظروف الملائمة، وإلى إحاطته بكثيرٍ من المثيرات ذات العلاقة بمجالات التفكير، والنشاط الإبداعى الذى تعينه على استغلال قدراته العقلية، ومواهبه الإبداعية الكامنة". تتعدد احتياجات الطفل المتفوق/ ذى الحاجة التعليمية الخاصة، وتختلف عن احتياجات الطفل العادى؛ فتطوير موهبته وتنميتها حاجة ملحة، تأتى على رأس الأولويات.

بيد أنّ التفوّق الدراسى الذى من مؤشراته التحصيل الجيد ينم عن ذكاء وموهبة الطفل وتميّزه عن أقرانه، فإنه ليس المؤشر الوحيد على الذكاء؛ فكثيرٌ من الأطفال ممن لم يلتحقوا بالمدرسة قد كشفوا عن موهبةٍ فذة، وتفوقٍ بارز.

دعم المدرسة لجهد العائلة أمرٌ ضرورى فى العناية بالطفل ذى الاحتياجات التعليمية الخاصة، وذلك بأن "تعزز الأنشطة الإثرائية التحصيل الدراسى، وتهتم بالعمليات العقلية ذات المستوى الأعلى، وتوسع الاهتمامات الثقافية فى المدرسة، وتقوى الإنتاجية الإبداعية، وتعرف التلميذ بأفكارٍ متعددة فى جميع نواحى الحياة، وتوسع الاهتمامات الثقافية للطلاب خارج المدرسة، وتساهم فى زيادة استمتاع التلميذ بالحياة المدرسية وتقليل الملل الذى يعانيه البعض فى المدرسة، وتكوين اتجاهات أفضل نحو التربية وأنشطتها، وتعزيز الشعور بقيمة الذات، وقيمة العمل المنجز وزيادة فرص تحفيز الطاقات والمواهب الكامنة لدى التلاميذ". يأتى دور المدرسة تكميليًّا لدور الأسرة، فى صَقْل الموهبة وإذكاء جذوة التفوّق عند الطفل.

تسهم القصة فى دعم تكامل شخصية الطفل المتفوق، دراسيًّا وعقليًّا ونفسيًّا واجتماعيًّا بإثرائها لرصيده اللغوى وجعله أقدر تعبيرًا عن أفكاره وعواطفه "فالقصة تحظى من بين فنون الأدب بمكانةٍ متميزة فى حياة الأطفال؛ فهى من أكثر الفنون الأدبية ملاءمة لميولهم ومن أشدها تأثيرًا فى سلوكهم وأقواها إثارة لتفكيرهم، واستثارة لعواطفهم، وهى بما تحمله من أفكارٍ متعددة وخبرات متنوعة، وما تدعو إليه من قيم وتقاليد أصلية بأسلوبٍ غير مباشر إنما تدفع الطفل إلى التنشئة الصحيحة، وتضع اللبنات الأولى فى بناء الشخصية، وتحديد هويته"، فالطفل فى هذه السن يكون بإمكانه إدراك قيمة ما حباه الله به من تفوّقٍ ومقدرة فاق بها أقرانه، من ثمة كان التركيز على الأدب الموجَّه إلى هذه الفئة أمرًا ضروريًّا.

لما كان عالم الطفل عالمًا له منطقه، وتتحكم فيه عديد المعطيات: السن، والمعرفة، والتكوين النفسى والعقلى...، فإنّ القصة بوصفها أحد الألوان الأدبية التى تلقى إقبالاً كبيرًا من طرف الطفل يجعل ربطها بنماذج تطبيقية من شأنه أن يعمّق الفهم، ويبيّن كيفية دعم القصة للطفل ذى الاحتياجات التعليمية الخاصة.

لذا فإن هذا البحث اتبع منهج الدراسة التحليلية وتم تركيز الجهد على قراءة واحدة من مجموعات قصص الأطفال ألا وهى: السلسلة الذهبية لعز الدين جلاوجى، والتى تضم خمس قصص موجّهة إلى الطفل فى مرحلة الإعدادى، وهى: طارق ولصوص الآثار، والحمامة الذهبية، والعصفور الجميل، والزهرة والخنزير، وابن رشيق، وقد افترض الأديب أن يكون قارئه من ذوى الاحتياجات التعليمية الخاصة / المتفوقين، فتوجّه إليه بهذه القصص بلغةٍ أدبية خاصة تتلاءم ومعطى سن هذا الطفل، ومميزاته العقلية.

١- مضامين قصص السلسلة الذهبية:

قصة طارق ولصوص الآثار (٠١):

كانت أولى قصص السلسلة الذهبية قصة "طارق ولصوص الآثار" بطل هذه القصة هو الطفل "طارق"، وهو تلميذٌ مجتهدٌ ومتفوقٌ قرأ أنواعًا عديدة من الكتب منها ما كان حول: الحيوانات، الطيور والفراشات، كما قرأ عن عالم الفضاء والطيران والمركبات الفضائية.

انعكست أمنية "طارق" بالتحليق فى الفضاء على حلمه؛ إذ رأى نفسه مع صديقه "عقبة" يعملان بجد من أجل اختراع مركبة فضائية، وهنا تبدأ حكاية القصة وتبدأ رحلة الصديقين. دفعت قلة الإمكانات وضآلتها "طارق" إلى قرار الاستعانة بوالده، وهناك يتغير مجرى الأحداث بظهور رجلٍ غريبٍ لم يكن إلا "عباس بن فرناس"* الذى اخترق الزمن ليساعد الصديقين فى تحقيق حلمهما فى صنع المركبة ثم القيام بالرحلة.

ولما كانت المحطات التى تستحق الزيارة عديدة، قرر "ابن فرناس" أن يكون المُنطلَق من "متحف الهواء الطلق بالطاسيلى"** فى الجنوب الجزائرى. تفاجأ الطفلان وهما يريان العدد الهائل لزوار المتحف الذين جاءوا من مختلف القارات، حيث أبدى الجميع إعجابهم بهذه النقوش والرسومات. كما أقرّ الطفلان بعظمة الأجداد، لكن ما فتئ هذا الاعتزاز والفخر يُخترق برؤيتهم لبعض المخربين الذين لا يدركون عظمة هذه الآثار وقيمتها التى لا تعنى الجزائرى فقط بل قيمتها عالمية، يفترض حمايتها والحفاظ عليها من أى تخريب. تم إبلاغ الشرطة التى ساقت الفاعلين للعقاب، انصرف الجميع على أمل اللقاء فى رحلة جديدة، ليستيقظ طارق على صوت أمه محاولة تهدئته.

الحمامة الذهبية (٠٢):

تدور هذه القصة حول حمامة بيضاء حباها الله بجمالٍ واضح، كان لها رأسٌ ذهبى اللون وجناحان خضراوان، اتخذت من شجرة زيتون وارفة الظلال مسكنًا لها.

فوجئت فى أحد الأيام باحتلال قردٍ أبيض لفروع الزيتونة المباركة، وطرده لها متباهيًا بقوته. باءت محاولاتها فى إقناعه بتعديه على حقها فى الشجرة التى هى مِلكٌ لآبائها وأجدادها قبلها بالفشل. قررت استرداد حقها بالقوة، فقامت بشحذ منقارها ومهاجمة القرد أثناء نومه، ففقأت عينه اليمنى مستردة بذلك مسكنها المسلوب.

قرر القرد الانتقام من الحمامة فلجأ إلى صديقه القرد وأقنعه بمساعدته، مقابل أن يوفر له الطعام. احتل الخنزير الشجرة بعد أن تحصّن ببيت بناه له القرد.

مرت فترة، كبُر فيها الفراخ وتعلموا الطيران، فأعانوا والدتهم الحمامة فى استرداد بيتهم وذلك بقتلهم القرد أولا، ثم الخنزير الذى أرغمه جوعه على الخروج بحثا عن الطعام. محاولا التحايل على الحمامة وصغارها، حيث رمى بكل ثقله ليسحقهم، لكن هو من تأذى وكُسِرت عظامه ليسقط فى الوادى ويلقى حتفه. لتعود الحمامة إلى عشها فَرِحة مسرورة مع صغارها.

قصة العصفور الجميل (٠٣):

تدور القصة حول الطفل طارق الذى جمع بين الأخلاق والتهذيب وحبه للطبيعة وعشقه لجمالها. بدأ الكاتب عز الدين جلاوجى قصته ببدايةٍ متفائلة تحدث فيها عن جمال الحياة، وما تحويه من أسبابٍ للسعادة. حكاية هذه القصة بسيطة تعمل على نشر الوعى لدى الناشئة، بحماية الطبيعة وحيواناتها الضعيفة.

قرر طارق الاستعانة بصديقه خالد فى اصطياد عصفورٍ للتمتع بجماله وبجميل ألحانه. أحضرا قفصًا ووضعا بداخله حَبّا، ثم ربطا الباب بخيطٍ. وبمجرد دخول العصفور القفص طلبًا للحبّ قاما بإغلاق باب القفص. كان فى قدوم الأب حل للمسألة؛ فقد نبههما إلى خطأ ما فعلاه، فالعصافير تحب الحرية، والدليل تغير حال هذا العصفور بعد وضعه فى القفص. قام بإقناعهما بضرورة إطلاق سراحه، فما إن فعلا حتى انطلق العصفور مغردًا فَرِحًا باسترداد حريته المسلوبة.

الزهرة والخنزير (٠٤):

تدور القصة حول حكاية زهرة بيضاء نبتت فى أواخر شتاء باردٍ على سفح جبل صخري متحدية قساوة الجو وريحه العاتية. فى المنطقة ذاتها كان يعيش خنزير أسود، كثيف الشعر ذميم الخِلْقة، يأكل كل حشيشة خضراء تنبت. وذات صباح، وهو فى جولة، فوجئ بالزهرة البيضاء التى نبتت دون أن يشعر بها، فقرر سحقها لأنه لا يسمح لأحدٍ أن يعيش معه على سفح الجبل، لكنه أراد فعل ذلك على فتراتٍ ليتسلى.

أحسّت الزهرة البيضاء بالخوف مما يتهددها، فقررت الدفاع عن نفسها فأخرجت أشواكها وغرستها فى رجل الخنزير وهو يهوى عليها بكامل قوته، فى هذه الأثناء سقط الخنزير على الأرض مغمى عليه، لينحدر فى الوادى بعد محاولته النهوض. تورمت رجله حتى تقيحت وظل يعانى حتى مات. لتجد الزهرة البيضاء نفسها قد تحررت من خوفها فراحت تنظم أكمامها، وإذا بالمكان من حولها يمتلئ بالحشائش الخضراء، والأزهار الملونة.

ابن رشيق (٠٥):

تدور القصة حول الإخوة الثلاثة: طارق وأسماء وخالد، الذين كانوا ينعمون بالطبيعة وجمالها الأخّاذ، حتى تذكروا موعدهم مع الجَد الذى قرر أن يحدثهم عن عالمٍ أو أديبٍ أو مفكرٍ ممن أنجبتهم الجزائر.

عمل الجَد على إعطائهم علامات تمكنهم من معرفة الشخصية محور الحديث، فكانت البداية مع ابن رشيق الذى كان واحدًا من علماء الجزائر الذين بذلوا حياتهم فى طلب العلم، والذين هاجروا إلى القيروان للنهل من علومها، إلى أن توفى فى جزيرة صقلية التى قضى بها آخر أيامه، مخلفا كمًّا من المؤلفات والكتب التى ما زالت إلى اليوم منهلاً يغترف منه طالب العلم.

٢ـ قراءة فى عناصر السلسلة الذهبية:

أـ لغة القصة:

الجميل فى هذه القصص قِصر الحجم؛ إذ روعيت فيها طبيعة القارئ/الطفل ذى الاحتياجات التعليمية الخاصة؛ كى لا يشعر بالملل، فجاءت المعانى مركزة لتعبر عن عمق الموضوع.

استعمل "جلاوجى" لغةً بسيطة مفهومة فى مجملها؛ فالمطلوب فى موضوع الكتابة للطفل "اختيار الكلمات وتركيبها فى جملٍ وفقراتٍ على نسقٍ معين ليقدّم به أدبًا للقراء. وأسلوب القصاص الجيّد هو الأسلوب المناسب للحبكة والموافق للموضوع، والملائم لشخصيات القصة"، وهو ما ظهر بشكلٍ جليّ فى نص قصة "العصفور الجميل"، حيث جاء أسلوبها ملائمًا لسن الطفل، وحبه للطبيعة وما تزخر به من جمال: "الحياة جميلة، كل ما فيها يدعو إلى السعادة والتفاؤل، وكل ما فيها يدعو للفرح والحبور: اخضرار النباتات، اختلاف ألوان الأزهار، إضاءة القمر، تلألؤ النجوم فى صفحة السماء إشراقة الشمس الذهبية، روعة الحيوانات والطيور". الملاحظ أنّها لغة بسيطة وسهلة، ملائمة للطفل، أحسن الكاتب اختيارها

فى التعبير تارة عن الخوف والوجل، وأخرى للتعبير عن الإصرار والتصميم، كما عبرت عن غرور الخنزير وتباهيه بقوته فى قصة "الزهرة والخنزير". فجاءت ملائمة للمعانى المتوخاة من النص.

الميزة الجميلة فى قصص السلسلة، هى حرص الكاتب على شرح بعض المفردات؛ إعانة للطفل على فَهْم النص، ليحثه فى الآن ذاته على القراءة والمطالعة بالرجوع إلى المعجم لفهم ما استعصى عليه من عباراتٍ أخرى، رغبة منه لإضافة مفردات جديدة إلى مكتسباته اللغوية، وترسيخها فى ذهنه. لتختتم كل قصة بإسداء جملة من النصائح التى أراد من الطفل أن يعيها ويحفظها.

عمل الأديب على زَرْع حُب المثابرة والاختراع فى الطفل، وإقناعه بعدم اليأس والإصرار على تحقيق الحلم، وهو ما أورده على لسان "طارق" فى قوله لصديقه عقبة: "عهدى بك تلميذًا مجتهدًا، والمجتهد يا صديقى لا ييأس، ولا يفشل ولا يؤمن بأى شىء يُسمى المستحيل. كل شىء ممكن أمام العقل البشرى". أراد "جلاوجى" أن يقول للطفل: الحلم مشروع، فكل الإنجازات الكبيرة بدأت أحلامًا.

الملاحظ أيضًا أن بعض هذه القصص اعتمدت على نبش التاريخ واستحضار شخصياته؛ رغبة فى ربط الطفل برجالٍ صنعوا مجد هذه الأمة (طارق، عقبة، عباس ابن فرناس، أسماء، خالد).

كما أن الغرض منها "تهيئة الأجيال لابتداع أصالة عربية مستقبلية تركز على إعادة الزخم والدينامية والتماسك إلى تيار التاريخ العربى المتصل، مما لا يتم إلا من خلال التفهّم العميق للتراث وتمثله فى الوجدان. كما تنطلق نحو فهم حقيقى لحقائق العالم المعاصر (عالم ما بعد التكنولوجيا) بكل معتقداته وتفاعلاته وتحدياته وإمكاناته الهائلة؛ من أجل إعداد العدة لولوجه والإسهام فى صناعته، وليس التوقف عند بابه مستهلكين"، وقد تجلى ذلك من خلال حديث "ابن فرناس" إلى الصديقين وهما يبديان إعجابهما وفخرهما بما خلّف أجدادهما من آثار قائلًا: "أجدادكم يا أبنائي لم يكونوا أقل منكم عبقرية، وإنما كل جيلٍ يقدم ما يقدر عليه، ليكمل الآخر المسيرة، وأنتم يا أبنائى يجب أن تكونوا بنفس القوة والعزيمة والذكاء، لتزيدوا صرح الحضارة الإنسانية علوًا وارتفاعًا"، وهو ما ينسحب على قصة "ابن رشيق" الذى "وجد ضالته من العلم فى التاريخ والدين والأدب واللغة، وجلس إلى كبار العلماء يتعلم منهم، ولم تمض إلا فترة قليلة حتى ظهر ابن رشيق عالمًا عظيمًا، فاق كل علماء ذلك الزمان". فالقصة ذات قيمة تعليمية تاريخية محضة، وهى التعريف بعلماء الجزائر ومفكريها؛ بغية ربط الطفل بوطنه ورجالاته، وكذا دعوته للاقتداء بأجداده واقتفاء أثرهم فى النهوض ببلدهم وتطويره.

تتعدد القيم الأخلاقية التى يدعو إليها الأديب "عز الدين جلاوجى" فى هذه القصة، منها: الحفاظ على مكتسبات الوطن، وحماية تاريخه من الإتلاف أو الضياع، وهو ما تجلى فى قوله على لسان "ابن فرناس": "إنهم المخربون سنجدهم فى كل مكانٍ يخربون حضارة البشرية، ويسرقونها اللعنة عليهم. انطلقوا جميعًا حتى نزلوا المكان المحدد وأحاطوا بهم من كل جهة... الأطفال كلهم عزم على حماية تراث البشرية. أما "عمو عباس" فاتصل بالشرطة التى جاءت مسرعة، وأحاطت بهم ثم ساقتهم للعقاب". فى النص دعوة ضمنية من الكاتب للطفل المتفوق/ ذى الاحتياجات التعليمية الخاصة، لحماية آثار بلده، والضرب على أيدى كل محاولات السرقة أو التخريب لتاريخ الأمة وحضارتها.

ب- الزمان والمكان:

تباين زمن وقوع أحداث قصص هذه السلسلة؛ فقد جعل الكاتب من الحلم زمنًا لسرد الأحداث، والولوج من خلاله للحديث عن وقائع حدثت فى الزمن الحاضر/الجزائر بعد الاستقلال "حينما أسدل الظلام ستائره على الطبيعة خلد طارق للنوم، وما كاد يستغرق فيه حتى رأى نفسه مع صديقه عقبة يعملان بجد؛ من أجل اختراع مركبة فضائية يطيران بها فى كل الاتجاهات". أما المكان فكان "حضيرة الطاسيلى". أراد جلاوجى أن يجعل من المكان رمزًا لاعتزازه، واعتزاز الطفل من ورائه بانتمائه إلى وطنه الجزائر، بكل ما تحويه من معالم تعكس عراقة هذه الأمة وأصالتها، فإن "خلفية القصة وجوها يجب أن يكونا صحيحين زمانًا ومكانًا، سواء كان فى عالمنا أو فى عالمٍ آخر، بحيث يضفيان إلى القصة الصدق، ويبعثان فيها الحياة. وكل قصة تحدث فى بيئةٍ معينة يجب أن تعطى جو هذه البيئة والإحساس بها، وتوحى بالشعور الذى يوحى به المكان فى واقعه، فالقصة التى تدور أحداثها فى الصحراء مثلًا يجب أن تعطى الشعور بالوحدة والسكون واللامبالاة بالزمن، وقسوة الحياة وشظف العيش". فالكاتب وإن كان يوجّه نصه لطفلٍ متفوقٍ / ذى احتياجات تعليمية خاصة، فإنّه فى الآن ذاته يدرك أنّها قصص موجهة للطفل بمختلف إمكاناته، قد يقرؤها (العادى، ضعيف الذكاء). من ثم فقد حرص على مراعاة ذلك، ولعله ما تجلى فى الوقوف عند بعض القواعد النحوية، وكذلك شرح لما قد يبدو صعب الفهم من مفردات.

لم يحدد الأديب "عز الدين جلاوجى" فى قصص أخرى زمانًا واضحًا لسرد أحداث قصصه، وكأنه يقول بأنها محتملة الحدوث فى أى زمانٍ كان، باستثناء ما ورد فى حديثه عن الليل والنهار الذى يطبع حياة كل المخلوقات، فتواليهما كان لطلب الرزق وكذا للراحة والنوم، كما هو الحال فى قصة "الحمامة الذهبية" التى اختارت الليل حيزًا زمنيًا لتأديب القرد: (فقأت عينه)، (قتلته بعد ذلك)، ثم لإخراج الخنزير من مسكنه المحصّن، ليلقى حتفه متأثرًا بجراحه. "وما كاد الظلام يخيّم ويشتد حتى تركت الحمامة فراخها حيث هى ونزلت إلى الأرض، فاختارت صخرة كبيرة، وراحت تحدّ منقارها عليها. حتى إذا تأكدت من حدته رفرفت بهدوء، إلى حيث يغط القرد فى سباتٍ عميق، واختارت عينه اليمنى، وبقوة نقرتها نقرة حادة، وارتفع عويل القرد، وصياحه يشق عتمة الليل متألمًا، وقفز إلى الأرض". وفى قصة "ابن رشيق" كان الزمان: صباحًا "تذكر الجميع موعدهم هذا الصباح مع جدهم؛ إذ اتفقوا معه منذ البارحة على أن يحدثهم كل يومٍ عن عالمٍ أو أديبٍ أو مفكرٍ أو باحثٍ ممن أنجبتهم الجزائر فانطلقوا نحو البيت، وما أن خلوا حتى وجدوا جدهم ينتظر فى قلقٍ شديدٍ، حيوه وجلسوا على الأرائك". فالزمن هنا عام، والصباح خاصية كل الأيام.

أما المكان، فكان فى معظمه الطبيعة بأفضيتها المختلفة، دون أن يرتبط بحيّزٍ محددٍ ومعروفٍ، باستثناء "حضيرة الطاسيلى" فى (قصة طارق ولصوص الآثار). لعل غاية هذه "القصص وتخطيها أبعاد الزمان تنقل الأطفال عبر الدهور المختلفة، كما تتجاوز بهم الحاضر إلى المستقبل. وبتخطيها أبعاد المكان تنقلهم إلى مختلف الأمكنة، وبتجاوزها الواقع تجعل الأطفال أمام حوادث ووقائع وشخصياتٍ وأجواء خارج نطاق الخبرة الشخصية للأطفال، وتهيئ لهم الطوفان على أجنحة الخيال فى عوالم مختلفة". إن المكان كما هو معروف لا يأتى منعزلًا عن بقية عناصر السرد، فتتنوع العلاقات التى تربطه بها. وقد كان للأديب عز الدين جلاوجى طريقته فى تقديم أمكنة مغايرة لما هو معهود بصورة فنية خاصة. كما هو الحال فى قصة "الحمامة الذهبية" التى قالت فى حوارها مع القرد: "الشجرة شجرتى، عشت فيها منذ طفولتى وفيها عاش آبائى وأجدادى، فما الذى جاء بك إليها؟"

فالزيتونة المباركة ليست كغيرها من الأشجار بالنسبة للحمامة؛ فهى الأصل والوطن والملجأ الحامى... لذلك استماتت فى الدفاع عن حقها فيها حتى استردادها.

قام جلاوجى بتزويد قصصه بجملة من الرسوم؛ إدراكًا منه أن "الصورة عامل مشوق للطفل يضعه فى جو القصة وأحداثها، إذا ما أحسن اختيارها فى تمثيل موقفٍ حاسمٍ أو حدثٍ بارزٍ من أحداث القصة". راعى صاحب النصوص خصوصية المتلقى / الطفل ذى الحاجات التعليمية الخاصة، فأرفق قصصه بجملة من الصور التوضيحية التى تقوم إلى جانب ترغيب الطفل فى القراءة، فهى تجذبه للاطلاع على مضمون القصة، لأن من "المعروف جيدًا أن الطفل الصغير يحتاج إلى اللوحات الداخلية كثيرًا بسبب ضعف مقدرته القرائية، ولكن هذه اللوحات تبقى ضرورية للطفل الأكبر سنًا، لأنها تجسد له حسيًّا ما فهمه ذهنيًّا من حوادث فى القصة المقروءة". الرسومات والصور تضفى على النص روحًا جمالية، تدفع الطفل إلى استحضار القصة وتمثل أحداثها وكأنه عايشها.

ج- الشخصيات:

قليلة هى شخصيات قصص "السلسلة الذهبية"؛ فهى فى الغالب لا تتجاوز ثلاث شخصياتٍ أساسية، وكأنّ "جلاوجى" لم يرد أن يشتت ذهن الطفل، بتوالى شخصياتٍ كثيرة على صنع الأحداث. ولما كان متلقيه هو الطفل، فقد جعل من أبطال هذه القصص أطفالًا مثلهم، ومن عينتهم/ذوو الاحتياجات التعليمية الخاصة، من ذلك: شخصية الطفل طارق، فى قصة "العصفور الجميل"، "بقدر ما كان طارق طفلًا مهذبًا فى أخلاقه مجتهدًا نجيبًا فى دروسه، كان محبًّا للطبيعة الفاتنة، ومحبًّا لكل ما خلق الله فيها. لكن حبه للطيور والعصافير أشد من كل شىء". حرص الكاتب على ربط هذه الشخصية بأخرى ثانوية؛ بهدف إشراكها فى صنع أحداث القصة بتعليم الطفل، وتنبيهه لبعض الأخطاء التى يقع فيها، من ذلك شخصية الأب فى القصة ذاتها.

كان فى قدوم الأب حل للمسألة، فقد نبه الصديقين إلى خطأ ما فعلاه، فالعصافير تحب الحرية، فأقنعهما بضرورة إطلاق سراح العصفور الجميل. جاء هذا التوظيف لـ "يواكب إشباع الحاجة إلى الإنجاز والنجاح للطفل مساعدة الآباء والأمهات له؛ لكى يتعلم المعايير السلوكية المتمثلة فى تعلم الحق والواجب. وما له وما عليه، وما الذى ينبغى أن يفعله وما لا يفعله... وإلى أى حد يوظف المعايير الأخلاقية فى كل تصرفاته حتى يضمن النجاح والتفوق، وذلك من خلال الإشباع الواعي لحاجاته النفسية والاجتماعية". رغم بساطة هذه القصة فإنها عملت على نشر الوعى فى الناشئة، وتنبيههم إلى ضرورة حماية الطبيعة وحيواناتها الضعيفة، والحفاظ على ما حباها الله به من جمال (حرية العصافير)، والتخلص من الأنانية بجعل الجمال متعة شخصية.

عمل صاحب النص "جلاوجى" على غرس مجموعة من القيم فى القارئ / الطفل، منها أنه: لا يضيع حق وراءه مطالب، لا تتنازل عن حقك ولا تفرط فى بيتك / وطنك، لا تثق بعدوك مهما أبدى لك من لين. كما أنّ القضاء على العدو يكون أولا بتخليصه من أسباب قوته، وهو ما تجلى بشكلٍ واضح فى قصة الحمامة الذهبية: "لقد استقر تفكيرى على حيلة، الخنزير ينزل ليلًا من الشجرة، لينال طعامه، وطعامه يوفره له القرد اللعين، وأنا أخطأت أوّل الأمر حين حاربت الخنزير نهارًا ونسيته ليلاً، وحين حاربت الخنزير ونسيت القرد". فالملاحظ أن كل قصص السلسلة الذهبية فيها دعوة إلى نبذ الظلم والدفاع عن الحق فى الحياة. والدليل على ذلك انتصار الزهرة رغم ضعفها وضآلة عودها، وانهزام الخنزير رغم ضخامته وقوته فى قصة "الزهرة والخنزير"، وكأنه يقول: "الإرادة وحدها تصنع المعجزات".

يدفعنا ذلك إلى القول بأنّ "القصص بفضل مسرحتها للحياة وما فيها من معانٍ أصبحت وعاء تجسيد الثقافة... فتبدوا معقدة أو مشوقة أو غريبة أو قريبة إلى حياة الطفل، أو بيئة أو ذات مساس بقيمة يمكن أن يتركز اهتمام الطفل حولها، أو يجد نفسه وكأنّه إزاء عقدة لا بد له من أن ينتهى بها إلى حل. وفكرة القصة ليست مجرد لمحة عابرة؛ لأنّها تظل تتطوّر باستمرار مع المضىّ فى القصة، دون أن تتضاءل أو تطغى عليها تفصيلات فرعية، أو استطرادات أو أفكار جانبية. وهى فى صيغة تلميح أكثر من صيغ التصريح المباشرة". كما نجد فى نصوص السلسلة جملة من الأنساق المضمرة، من ذلك قصة "الحمامة الذهبية" التى فيها دعوة لعدم الاستسلام والنضال لاسترجاع الحق المسلوب، وإيماء إلى ما حدث لفلسطين، واغتصاب أرضها من طرف الصهاينة.

وظّف "جلاوجى" الحيوانات وسيلة لنقل رسالته إلى الطفل، وأسند إليها مهمة أداء الأحداث فى قصص السلسلة، فـ "القصة على لسان الحيوان عادة قصة قصيرة، تضم قليلًا من الشخصيات لا تتجاوز الثلاثة، وحدثًا واحدًا. ورواية الخرافة بروايات مختلفة تكشف عن الاختلافات فى التفسير". الحكاية على لسان الحيوان قديمة فى تراثنا العربى، ونماذجها عديدة. ولما كان المتلقى طفلاً، فقد جاء هذا التوظيف ملائمًا جدًّا لطبيعته النفسية والعقلية.

وقد تجرى الأحداث بين جنسين مختلفين من الشخصيات، كأن تؤدى الحكاية على لسان نبتة وحيوان كما كما هو الحال فى قصة "الزهرة والخنزير": "بينما كان ذات صباح فى جولةٍ له، رأى الزهرة البيضاء، فتعجّب كيف غافلته ونبتت دون أن يشعر بها، وتغيّرت ملامحه فصاح بها غاضبًا: آه!! أيتها اللعينة مَن سمح لك بالظهور فوق أرضى؟ اقشعر جسم الزهرة البيضاء من الخنزير الأسود ولم تردّ عليه. فتقدّم منها بجبروت ورفع قدمه ليسحقها وصاح صياحًا دوّى الجبل وقال: ... سأدوسك بقدمى الضخمتين، وأسحقك سحقًا. لن أسمح لأحدٍ أن يعيش معى فوق هذا السفح، إنّه ملكى لوحدى". فهذا اللون من القصص بطابعه الرمزى، يحمل رسالة نقدية لأوضاع وأحداث اجتماعية، تحتاج من الطفل / ذى الاحتياجات التعليمية الخاصة أن يدرك أبعادها، "وهى تتيح للطفل تفهّم الرمز الذى يرمى إليه استخدام الحيوانات ومتابعة الحوار الذى يجرى على ألسنتها، وإدراك ما يرمى إليه. وهذا اللون من القصص أكثر قربًا من الأطفال وإمتاعًا لهم فى مراحل نموهم المختلفة مثل قصص كليلة ودمنة". ففى القصة استغلالٌ للون فى التعبير عن كوامن النفس. البياض أُسنِد للزهرة (دلالة على النقاء وصفاء السريرة)، والسواد للخنزير (دلالة على الغطرسة والحقد).

خاتمة:

- أدب الطفل هو نصوص أدبية فى صورة مكتوبة أو منطوقة أو مرئية، تتوفر فيها معايير الأدب الجيّد، وتراعى خصائص نمو الأطفال وحاجاتهم، وتتفق مع ميولهم واستعداداتهم.

- تنامت العناية بأدب الأطفال وتزايدت، فصار الاهتمام به ضربًا من ضروب وقاية الطفل من سلبيات الحياة المعقدة؛ حيث أصبح يُدرَّس فى الجامعات والكليات التربوية المختلفة، وتُعقد حوله الندوات والمؤتمرات.

- ظهر فى الجزائر بعد الاستقلال جيلٌ من الأدباء الذين اهتموا بأدب الطفل، تكميلًا لجهود نظرائهم فى مراحل سابقة، لتتنوع الأشكال الأدبية التى خص بها الطفل: أناشيد، مسرحيات وقصص...

- القصة واحدة من الألوان الأدبية التى لاقت إقبالًا كبيرًا منذ القديم، فكانت مروية أولًا، لتكتب بعد ذلك وتصبح لونًا أدبيًا له خصائصه المميزة.

- تعددت احتياجات الطفل ذى الاحتياجات التعليمية الخاصة؛ فهو بحاجة إلى تضافر جهود العائلة والمدرسة لتطوير إمكاناته، بوصفه ينتمى إلى فئاتٍ تختلف عن المستوى العادى فى الخصائص العقلية.

- عُنيت المدرسة بإثراء الاهتمامات الثقافية للطفل، وتقوية إنتاجيته الإبداعية. وتعزيز الشعور بقيمة الذات، وقيمة العمل المنجز وزيادة فرص تحفيز الطاقات والمواهب الكامنة لدى التلاميذ ذوى الاحتياجات التعليمية الخاصة.

- استعمل "جلاوجى" فى السلسلة الذهبية لغةً بسيطة مفهومة فى مجملها. روعيت فيها طبيعة القارئ / الطفل ذى الاحتياجات التعليمية الخاصة، بأسلوبٍ مناسبٍ للحبكة وموافق للموضوع، وملائم لشخصيات القصة، فجاءت المعانى مركزة معبرة عن عمق الموضوع.

- عمل "عز الدين جلاوجى" على زرع جملة من القيّم، جاءت مبثوثة فى حنايا قصصه؛ بغرض تهيئة أجيال تبدع فى تحقيق أصالة عربية مستقبلية، وتعمل على النهوض بحضارة أوطانهم.

- أما عن زمان ومكان قصصه، فمنها ما تعلّق بالواقع، ومنها بعالمٍ آخر، ما أضفى عليها الصدق، وأوحى بواقعية الأحداث. كما كان فى تخطى أبعاد الزمان والمكان نقلٌ للطفل/ ذى الاحتياجات التعليمية الخاصة عبر أزمنة مختلفة، وأمكنة عديدة، وجعله يتفتح على عوالم لا يعرفها من قبل، ولا وجود لها ضمن خبراته الشخصية.

- لما كانت قصص الحيوان قريبة من الطفل، وأكثر القصص إمتاعًا بالنسبة إليه عبر مراحل نموه المختلفة، فقد وظّفه الكاتب فى بعض قصصه بشكلٍ رمزى، ممكّنًا الطفل من متابعة الحوار الذى يجرى على ألسنتها، وإدراك ما يرمى إليه.

- عمل "جلاوجى" فى السلسلة الذهبية على تعميق صلة الطفل بماضيه، وعلماء بلاده؛ حتى يزداد اعتزازًا بأصالته، فينطلق منها لصنع غدٍ أفضل، وحضارة أكبر.

قائمة المصادر والمراجع:

١- أحمد حسن حنورة. أدب الأطفال، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨٩.

٢- إسماعيل عبد الفتاح . أدب الأطفال فى العالم المعاصر رؤية نقدية تحليلية، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩.

٣- توفيق اليوسف الواعى. الإبداع فى تربية الأولاد، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٥.

٤- عبد الحميد شاكر . علم نفس الإبداع، دار غريب القاهرة، ١٩٩٥.

٥- الربعى بن سلامة. من أدب الأطفال فى الجزائر والعالم العربى ط ١، دار مداد يونيفارستى براس، قسنطينة - الجزائر، ٢٠٠٩.

٦- رضا مسعد السعيد وهويدا محمد الحسينى. استراتيجيات معاصرة فى التدريس للموهوبين والمتفوقين، مركز الإسكندرية للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧.

٧- رمضان محمد القذافى. رعاية الموهوبين والمبدعين. المكتبة الجامعية، ط٢، الإسكندرية مصر، ٢٠٠٠.

٨- سمير عبد الوهاب أحمد. أدب الأطفال قراءات نظرية ونماذج تطبيقية، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان - الأردن، ٢٠٠٦.

٩- فؤاد أبو حطب وآخرون. معجم علم النفس والتربية، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٩٨٤، ج ١.

١٠- عمر الأسعد. أدب الأطفال، ط ١، عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن، ٢٠٠٣.

١١- محمد حسين قطنانى وهشام يعقوب مريزيق. تربية الموهوبين وتنميتهم، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، الأردن، ٢٠٠٩.

١٢- محمد سامى منير. المدرس المثالى، دار غريب للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠.

١٣- محمد على الهرفى. أدب الأطفال دراسة نظرية وتطبيقية، دار الرسالة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٦.

١٤- مريم سليم. أدب الطفل وثقافته، ط ١، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان، ٢٠٠١.

١٥- عز الدين جلاوجى. السلسلة الذهبية، دار المنتهى، سطيف الجزائر، ٢٠١٨، ص٣٥.

* عالم عربى أندلسى، أول إنسان حلّق فى الفضاء.

** متحف فى الهواء الطلق فى أقصى الجنوب الجزائرى، نقشه الإنسان على صخور الجبال، حوالى القرن التاسع قبل الميلاد.